

اسم المادة: سورة البلد

من سلسلة: تفسير جزء عمّ

لفضيلة الشيخ: د. أحمد عبد المنعم

Way2allah.com

way2allahcom

إنتاج فريق التفريغ بشبكة الطريق إلى الله

اسم المادة: سورة البلد
من سلسلة: تفسير جزء عمّ
لفضيلة الشيخ: د. أحمد عبد المنعم



بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله –صلى الله عليه وسلم–.

بإذن الله –عز وجل– هناخد سورة إن شاء الله النهاردة من سور جزء عم، بإذن ربنا يقدر كده ونمشي نخلص السور اللي فاضلة لنا في جزء عم أو نرجع تاني للسياق اللي كنا ماشيين فيه بعد سورة يس.

النهاردة بإذن الله –عز وجل– ناخد سورة البلد.

سورة البلد سورة مكية، يعني بعضهم نقل الإجماع على إن السورة مكية، والخلاف فيها ضعيف جدًا، بس هو الراجح إن شاء الله إن هي مكية يعني. نزلت في جو أيضًا من أجواء الاستضعاف في مكة. بتبين حقائق بيعيشها الإنسان، كيف يتعامل الإنسان مع هذه الحقائق؟

الإنسان في هذه الحياة قد يمر بظروف من الابتلاءات والصعاب، أو بالتعبير القرآني اللي جه في السورة: "لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ" الإنسان بيمر أو بيكابد صعاب في هذه الحياة، هذه الابتلاءات اللي بتنزل على الإنسان بيكون للإنسان ردود فعل تجاه هذا البلاء.

يعني مثلًا: لو إنسان ابتلي بمرض، أو ابتلي بفقر، أو ابتلي بفقد إنسان عزيز عليه، طبيعي إن الإنسان ده يبقى له رد فعل، رد الفعل ده قد يكون محكوم بالشرع فيحمد الله –عز وجل– حتى لو بكى، لكن يحمد الله –عز وجل– ولا يقول إلا ما يرضي الملك –سبحانه وتعالى–.

أو لو كان رد الفعل ده مش محكوم بالشرع، قد يتصرف الإنسان تصرفات طائشة، يعني يستجلب بها على نفسه السيئات –والعياذ بالله–.

إذًا كل مشكلة أو كبد أو ابتلاء بيمر به الإنسان لازم يبقى له رد فعل.

من رحمة الله –عز وجل– إن لما كان المسلمون يمرون بمراحل من الابتلاءات، سواء في مكة أو في المدينة، كان بينزل القرآن يبين لهم التعامل أو رد الفعل الأمثل، أو يضبط لهم ردود الأفعال اللي حصلت مش منضبطة مع الشرع فينزل القرآن.

القرآن ماتركش لهم ردود الأفعال تكون بعقولهم وبأهوائهم، أو بنفوسهم؛ لأن ردود الأفعال ممكن تختلف على حسب نفسية الإنسان، النهاردة نفسيته مظبوطة ممكن رد فعله كويس، يعني فيه تقلبات هوائية للإنسان، فبينزل الشرع يُحافظ على ردود هذه الأفعال.

فمن رحمة ربنا –سبحانه وتعالى– إنه كان بينزل القرآن مع الابتلاءات والوقائع يعالج النفس البشرية، يجعلها تتحمل هذه الابتلاءات ويجعلها تجعل هذه الابتلاءات في طاعة الملك –سبحانه وتعالى–.

قال الله –عز وجل– لما الكفار قالوا: لولا نُزل عليه القرآن جملة واحدة، كذلك –أي نزل القرآن مفرقًا– "كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ" الفرقان:٣٢، يبقى إذًا من أهم ما يستفيده الإنسان من كتاب الملك –سبحانه وتعالى–: إن مع الوقائع المتكررة والابتلاءات المتنوعة والمواقف المختلفة بينزل القرآن يثبت الإنسان في التعامل مع هذه المواقف.

فمن هذه المواقف ومن هذه الابتلاءات: إن الإنسان يمر بصعاب في حياته، كيف يتعامل معها؟ تيجي سورة البلد تبين هذه الحقائق.

بدأت سورة البلد بقول الله -عز وجل-: "لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ * وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا الْبَلَدِ * وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ" ده القسم، جواب القسم: "لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ".

بدأت السورة بقول الملك -سبحانه وتعالى-: "لَا أُقْسِمُ"، العلماء في التفسير مختلفين، كلمة "لا أقسم" معناها إيه؟

جمهور المفسرين إن ده قسم، وإن مش معنى "لا أقسم" إن ربنا مابيقسمش، لا، ده قسم، لكن في صورة معينة كانت معروفة عند العرب؛ دليلهم إيه؟

- دليلهم قول الملك -سبحانه وتعالى- لما ربنا قال: "فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ" الواقعة:٧٥، قال بعدها: "وَإِنَّهُ -إيه- لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ". فقالوا ربنا قال: "فلا أقسم" وبعد كده قال: ده قسم عظيم. يبقى إذًا "لَا أُقْسِمُ" قسم.

- بعض العلماء قال: لا، معنى "لَا أُقْسِمُ" إن لا: نفي، أي: لن أقسم بهذا، طب ليه ربنا مش هيقسم بهذا؟ أمال ربنا ذكره ليه؟ لشدة وضوحه لن أقسم به. كأن ربنا بيقول لنا هذا الأمر عظيم ولا يحتاج إلى قسم، هذا الأمر عظيم ولا يحتاج إلى قسم.

- وبعض العلماء قال: إن "لَا أُقْسِمُ" لا: رد لكلام قالوه، زي ما بتقول إيه؟ واحد يقول لك: حصل كذا كذا، تقول له: لا، والله لقد حصل عكس كذا كذا، فلا رد لكلام قالوه.

فمثلًا إذا قال المشركون: ليس هناك يوم للقيامة ولا للبعث، فيقول الله -عز وجل-: لا، كلامكم خطأ، أقسم بيوم القيامة. يبقى إذًا بعض العلماء قال ويُقدَّر الكلام الذي قاله المشركون على حسب اللي إيه؟ سياق للآيات.

كل دي أقوال بتحاول تفسر كلمة "لَا أُقْسِمُ".

اللي قالوا من العلماء إن "لا أقسم" معناها: لن أقسم، مش إن "لا" دي نافية، مش هأقسم، قال: وكأن حصل معنيين مرادين:

المعنى الأول: تعظيم ما يريده الله -عز وجل- أن يقسم عليه.

المعنى التاني: مانع إن ربنا يقسم عليه.

فحصل شبه تعارض، إن ربنا لا يريد أن يقسم، ويريد أن يقسم، فجه الأسلوب بتاع "لا أقسم" يجمع بين المعنيين. يعني مثلًا: بعض العلماء هنا قال: "بهذا البلد" اللي هي بلد إيه؟ مكة، ده الإجماع، إن البلد دي مكة، البلد الحرام.

بعض العلماء قال: "لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ * وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا الْبَلَدِ" إن "حِلٌّ" زي ما هنتكلم فيها، أي: يستحلون عذابك، ويستحلون دمك وعرضك. يعني "وَأَنتَ حِلٌّ" أي وأنت تُعذَب في هذا البلد. فبعض العلماء قال معنى الآية: لا أقسم بها وأنت تُعذَّب فيها. معايا؟

يعني لما أنت تبقى بتتعذب فيها لا أقسم بها. ده يبقى كأن ربنا يريد إنه يعظم البلد، وفي نفس الوقت هو بيعذَّب في البلد، فقالوا يحصل نوع من اللي إيه؟ إن إرادة كده وإرادة كده، فيجي الأسلوب ده يجمع ده.

الشاهد احنا قلنا -عشان يبقى ذكرنا بس الأقوال- إن جمهور المفسرين إن ده قسم، أيًا كانت الدلالة، هل بيرد حاجة أو له معنى أو من شدة الوضوح ومن شدة الظهور لا يحتاج إلى قسم، زي لما ربنا يقول "لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ" القيامة:١، كأن المعنى إن من شدة ظهور دلالات يوم القيامة، هذا الأمر لا يحتاج إلى قسم ولا ينكره إلا جاحد، والذي يحتاج إلى قسم لإثبات يوم القيامة هو جاهل، ده أحد معاني: لا أقسم بالقيامة.

فنيجي للسورة "لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ" الشاهد إن ده قسم، سواء تعظيم، أو الغرض تعظيم مكة، سواء ده قسم أو مش قسم الغرض الأساسي هو: تعظيم هذا البلد. "لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ" اللي هي مكة، "وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا الْبَلَدِ" "أنت" اللي هو مين؟ النبي -صلى الله عليه وسلم-.

يعني إيه "حِلٌّ بِهَٰذَا الْبَلَدِ"؟ كلمة حِلٌّ جاية حاجة من اثنين:



إما من حلال، أو من حال؛ أي إيه؟ مقيم.

يبقى بعض العلماء أو العلماء قالوا كلمة "حِلٌّ" أصلها اللُّغوي يرجع إلى حاجة من اثنين:

إما حل بمعنى: جاية من كلمة حلال "كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ" آل عمران:٩٣، يبقى إيه؟ يبقى كل الطعام كان حلًا يعني إيه؟ حلال، يبقى حِلٌّ جات في القرآن في سورة آل عمران بمعنى إيه؟ بمعنى حلال.

وبعض العلماء قال: حِلٌّ تكون بمعنى مقيم. يعني مثلًا: أنت حل في هذا المكان، أي: أنت حالٌّ ومقيم في هذا المكان.

اللي قال إن "حِلٌّ" –عشان نعرف بس التقسيمة– من العلماء قال: إن "حِلّ" إما بمعنى: حلال، أو "حِلّ" بمعنى: مقيم.

اللي قال إن "حِلٌّ" بمعنى: حلال، قال معنى الآية إيه؟ قال معناها حاجة من اثنين:

إما وأنت حِلٌّ، أي: ســـتُحَل لك هذا البلد. البلد دي اسمها البلد اللي إيه؟ الحرام، يحرم فيها القتال. لكن الله –عز وجل– أحلها للنبي –صلى الله عليه وسلم– ساعةً من نهار أن يقاتل فيها يوم الفتح. فقال معناها: لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ * وَأَنتَ حِلٌّ، أي: ستُحل لك هذا البلد، بشرى بالتمكين لك في هذا البلد، كل ده كلام عن اللي إيه؟ عن المستقبل. إن ربنا –سبحانه وتعالى– بيقول للنبي –صلى الله عليه وسلم– يقسم أنه سوف يأتي يوم يُحَل لك القتال في هذا البلد، ولن تُحل لأحد غيرك. واضح المعنى ده؟

طيب. يبقى احنا قلنا إما "حِلٌّ" بمعنى إيه؟ حلال. أو "حِلٌّ" بمعنى مقيم.

اللي قال "حِلٌّ" بمعنى: حلال، قال معنى من اثنين:

المعنى الأول: للكلام عن المستقبل، أنها ستكون لك حلالًا.

أو اللي قال "حِلٌّ" بمعنى حلال، قال: "وَأَنتَ حِلٌّ" أي: وأنت مُستحَل في دمك وعرضك –صلى الله عليه وسلم–، فكان زي ما بيقول شرحبيل ان سعد: كان المشركون يعني يتحرجون، بيحس بإنه بيستحرم يعني، كانوا يتحرجون أن يؤذوا الطير والحيوان ولا يتحرجون من إذاية سيد الأنام –صلى الله عليه وسلم–.

يعني كان لما يجي عايز يموت حد، أو يضرب حيوان أو شجر، كان يقول لك: لا حرام، دي بلد حرام، لكن لما كان يؤذي النبي –صلى الله عليه وسلم– يقول لك: لا، ده حلال، وده زي المشركين دايمًا لما بيضعوا قوانين لهم أو حتى قوانين شرعية موجودة إزاي هو دايمًا بيتحايل عليها، يستعملها لما تنفعه ويكفر بها إذا كانت ضده. يبقى "وَأَنتَ حِلٌّ" أي وأنت إيه؟ مُستحَل.

لذلك بعض العلماء قال: تلاقيه يجي يفسر كلمة حِلٌّ يقول: وأنت غرضٌ لهم، غرض –الغرض اللي هو للسهم– كأنهم صوبوا كل السهام والرماح في صوب النبي –صلى الله عليه وسلم–. يبقى وجهوا كل الطاقات لإذاية النبي –صلى الله عليه وسلم– ولهدم النبي –صلى الله عليه وسلم–، ولكن الله –عز وجل– عصمه –صلى الله عليه وسلم–.

ده المعنى الأشهر، وده المعنى اللي رجحه ابن عاشور وقال: إن "حِلٌّ" في اللغة لا تأتي إلا بمعنى حلال، وإن كان بعض العلماء أنكر عليه وقال: لا، "حِلٌّ" قد تأتي بمعنى مش حلال، تأتي بمعنى إيه؟ مقيم.

اللي قال إن "حِلٌّ" بمعنى مقيم، قال: لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ ويزيدها شرفًا أنك مقيم بها –صلى الله عليه وسلم–، فأصبح شرف على شرف، شرف البلد وشرف ساكن البلد، وهو مين؟ النبي –صلى الله عليه وسلم–.

المعنى اللي أنا بميل إليه: إن معنى "حِلّ" أي: يستحلونك، لأن السورة مكية، فـ "حِلّ" لو قلنا بمعنى حلال، إما حلال في المستقبل ستُحل لك، أو في الواقع المضارع اللي نزلت فيه السورة اللي هو أنهم إيه؟ يستحلون دمك.



طيب، يبقى إذًا يقسم الله –عز وجل– إن المشركين تجرأوا على حرمة هذا البلد، ويؤذوا النبي –صلى الله عليه وسلم–، فبدأت السورة بشدة أنواع الابتلاء؛ مش إذاية بس المؤمنين، ده أذية مين؟ النبي –صلى الله عليه وسلم–، وأن الله –عز وجل– يقسم بهذا، وأن هذا حادث لا محالة. اللي معتقد إن فيه إيمان بدون ابتلاء ده واهم، "أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ" العنكبوت:٢.

دايمًا أحسب أو أيحسب تيجي في القرآن للحسابات الخاطئة، للظنون الخاطئة، زي ما هيجي معانا النهاردة مرتين "أَيَحْسَبُ" الاثنين حسابات خاطئة واهمة، وحتى اللي بعدها في سورة العنكبوت اللي بعدها "أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ" العنكبوت:٤.

يبقى دايمًا حسب، "أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ" البقرة:٢١٤، دايمًا حسب في القرآن –فيما رأيت يعني– تأتي للحسابات الخاطئة، للظنون الخاطئة، فبيجي القرآن يصلح هذه الحسابات، كأن الإنسان لما بيحسب حسابات بعيد عن الشرع بيحسبها غلط، فالقرآن يصلحها له.

فاللي هيظن إن فيه إيمان بدون ابتلاء، ده واهم، فيه ابتلاء وفيه معاناة، ومن أعلى صور هذه المعاناة في الكون معاناة النبي –صلى الله عليه وسلم– لنصر ونشر هذا الدين، وأنه أوذي في الله، وقال: "لقد أُخِفتُ في اللهِ وما يخاف أحدٌ، ولقد أُوذيتُ في اللهِ وما يُؤذَى أحدٌ"[1]، أي مر عليه –صلى الله عليه وسلم– أوقات كان هو الوحيد الذي يؤذى في الله؛ لأنه كان هو اللي بدأ الدعوة –صلى الله عليه وسلم–.

"لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ * وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا الْبَلَدِ * وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ" يعني إيه والد وما ولد؟

"والد وما ولد" فيها أقوال كثير، أشهر قولين أنا بميل لهم:

القول الأول: "والد وما ولد" أي كل والد وكل ولد، العموم، ودا اختيار الطبري، ودايمًا الطبري غالبًا بيميل للإيه؟ للعموم. طالما جات نكرة كده، يُقسم الله بكل والد وبولده، طب ليه؟ هنشوف دلوقتي.

أو والد: هو إبراهيم –عليه السلام–.

لو قلنا: "وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ" كل والد وابنه، إيه علاقة والد وما ولد باللي قبلها؛ إذاية النبي –صلى الله عليه وسلم–؟ واللي بعدها اللي هو جواب القسم "لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ"

تاني: العلماء بيقولوا: فيه قَسَمين، وجواب قسم.

القَسَم الأول: "لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ * وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا الْبَلَدِ" كثير من العلماء قال: "وَأَنتَ حِلٌّ" تبع "لَا أُقْسِمُ" مش قسم لوحده. يبقى يقسم الله –عز وجل– بهذا البلد أثناء أنه النبي –صلى الله عليه وسلم– يؤذَى فيه. يبقى القسم بمكة بأعظم البلاد وأعظم العباد –صلى الله عليه وسلم– وهو يُؤذى في هذا البلد. يبقى أعلى صور الابتلاء في أشرف الأماكن ذكرها ربنا في القسم الأول.

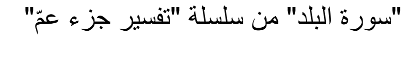
القَسَم الثاني: "والد وما ولد"، المفروض جواب القسم يناسب الاثنين، يعني كلمة "لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ" تناسب القَسَم الأول وتناسب اللي إيه؟ القَسَم الثاني.

علاقة "لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ" أي أن: الإنسان سيُبتلى حتمًا، واضحة بالأولانية، لأن الأولانية آية إيه؟ آية عذاب وتعذيب المشركين للمسلمين في مكة، وخاصة النبي –صلى الله عليه وسلم– ومحاولة إيذاء النبي –صلى الله عليه وسلم–. يبقى جواب القسم واضح جدًا بالإيه؟ بالقسم الأول.

طب إيه علاقة "لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ" بالقسم الثاني؟

لو قلنا إن "والد وما ولد" معناها: كل والد وولده، الإنسان في حياته الدنيا يعيش في معاناة، وأكثر صور هذه المعاناة تعلق الإنسان بولده، ويُبتلى الإنسان بولده، والولد بوالده، دايمًا فيه ابتلاء، وطبعًا ابتلاء الوالد بولده أشد، فالنبي –صلى الله عليه وسلم– بيقول: الولد إيه؟ "إنَّ

[1] صحيح الترغيب




"الولدَ مَبخلةٌ مَجبنةٌ"[٢]، الولد مجبنة يعني كثير من الحاجات أنت عايز تعملها بتخاف على عيالك مبتعملهاش، كثير من الفلوس عايز تصرفها مش عايز علشان عيالك، فالولد بيمنعك من البذل، أو بتعبير السورة: الولد بيمنعك من اقتحام العقبة الولد إيه؟ يمنعك.

فكأن ربنا بيقول: كل الناس بتبتلى، فيه واحد بيبتلى أنه يُؤذى في سبيل نصرة هذا الدين، وواحد كل ابتلاءاته هي حياته الدنيوية، مسيرة حياته الدنيوية، "وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ" علشان كده جات بصورة مبتخلصش، "والد وما ولد"

فكأن فيه نوعين من الابتلاء: الابتلاء لنصرة هذا الدين، والابتلاء في الحياة الدنيا، وإن كل الناس بيبتلى، متعتقدش إنك لما تبعد عن نصرة الدين إنك مش هتبتلى، لا، هتبتلى.

"لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ" العموم، الإنسان العموم، والاستغراق، كل الناس بتبتلى، كل الناس يغدو، كل الناس هتبتلى، هو طبعًا الثاني حتى اللي بيعمل للدين برضه عنده ابتلاء في الأولاد، لكن من عظم ابتلائه في الدين ده أعظم حاجة في حياته، ولا يُفتن بأزواجه وأولاده وأمواله، لا، هو مركز في نصرة هذا الدين.

يبقى إذًا فيه نوعين من الابتلاء. ده اللي قال: إن "والد وما ولد" بمعنى: كل والد وكل ولد.

اللي قال: "والد وما ولد" إبراهيم –عليه السلام–، وهيبقى وَمَا وَلَدَ النبي –صلى الله عليه وسلم– من نسله، أي أن: تعذيبهم وإذاياتهم وابتلاءهم لم يمنع مسيرة التوحيد من لدن إبراهيم –عليه السلام– إلى أن وصل النبي –صلى الله عليه وسلم–، وبُعث النبي –صلى الله عليه وسلم– في مكة. فمهما فعلوا من ابتلاءات ستظل هذه المسيرة مستمرة، مهما عذبوا ومهما فعلوا، زي ما ربنا –سبحانه وتعالى– الغرس اللي غرسها إبراهيم في التوحيد في مكة، والوقفة التي وقفها على الصخر خلدها الله –عز وجل– في مقام إبراهيم، قدم إبراهيم –عليه السلام– علمت في الصخر، وقفة خلدها الله –عز وجل– وظهر من نسله واستجابة لدعاء إبراهيم "وَابْعَثْ فِيهِمْ" البقرة:١٢٩، سيدنا إبراهيم دعا إن ربنا –سبحانه وتعالى– يبعث فيهم من ذريته اللي يعلمهم ويتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة. فاستجابة لهذه الدعوة جاء محمد –صلى الله عليه وسلم– من نسل إبراهيم واستمرت الدعوة. فأنت تصلي على محمد وتصلي على إبراهيم في الصلاة. معايا؟

يبقى "والد وما ولد" يبقى كده عرفنا علاقة "وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ" باللي قبلها واللي بعدها على كل القولين، سواء إبراهيم، أو كل والد وكل ولد.

"لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ" لام للتأكيد، و(قد) أيضًا للتأكيد، الإنسان: كل الناس، في كَبَد، الكَبَد: كأن الإنسان جوه الكَبَد.

الإنسان لما بيصاب، يقول لك: يصاب في كبده، يتألم، ولما يجي عايز يصارع حاجة يقولوا: يكابد، في اللغة.

كده كده الإنسان في معاناة ومشاق في هذه الدنيا. هذه المعاناة محيطة، كلمة "في" محيطة بالإنسان، أي أن الإنسان مهما فعل هيظل في ابتلاء.

كثير من الناس معتقد إن لو جات الفلوس مش هيبقى فيه ابتلاءات، لو رُزق بعيال مش هيبقى فيه ابتلاءات، لو سافر مش هيبقى فيه ابتلاءات، لو فلان مات مش هيبقى فيه ابتلاءات.

الابتلاءات ستظل موجودة، هيظل داخل هذا الكَبَد، محاولة الهروب من الكَبَد ليس حلًا، لذلك السورة قالت الحل مع الكبد مش الهروب، أمال إيه؟ الاقتحام. "فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ"

الحل في الابتلاءات والمتاعب مش الهروب منها، يعني واحد فيه مثلًا تضييق في الدعوة، هو معتقد الحل إنه يروح لمكان فيه سعة، لا، الحل الاقتحام، إلا إذا ضاق الأمر تمامًا.

دايمًا الإنسان معتقد إن الحل إن الدنيا تتسفلت، وإن الأمور تتظبط، لا، مش ده الحل. ممكن تتظبط وميحصلش حاجة، وأنت متعملش للدين. الحل: البذل والاقتحام في زمن الاستضعاف، زي ما ربنا جاب أمثلة عن اقتحام العقبة.

[٢] صحيح ابن ماجه



يبقى "لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ" دي سُنَّة، "كلُّ النَّاسِ يغدو، فبائعٌ نفسَهُ فمُعتِقُها أو موبِقُها"[٣]، ولما ربنا قال: "وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ" وسمى في السورة هنا سمى طريق الخير وطريق الشر سماه "نجد" والنجد: الهضبة المرتفعة الصعبة.

الطريقين صعبين، الناس معتقدة إن طريق الخير صعب وطريق الشر سهل، لا، تحقيق الشهوة صعب، أثناء الوصول وبعد الشهوة فيه صعوبة ومشقة، فيه واحد بيتعب علشان ربنا، وفيه واحد بيتعب علشان نفسه.

فربنا بيقول: "لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ" كده كده هيظل الكبد محيط بك طول فترة الحياة، سُنَّة أن الدنيا دار ابتلاء، اللي هيعتقد وهيتعجل الثواب في الدنيا ويعتقد أن الدنيا دار جزاء ده واهم، أشبه بإنسان في لجنة الامتحان وجاله امتحان ١٠ أسئلة، حل السؤال الأول، عايز بقى إيه؟ حد يصقف له وحد يجيب له هدية، طب كمل الامتحان، لا، عايز وهو في اللجنة بعد ما خلص السؤال الأول يا جماعة أنا خلصت الحل، طب كمل الامتحان، فيتقال له مينفعش تُهنأ ولا يُصحح لك ولا تجازى وأنت لسه في اللجنة، أما تخلص وتتحاسب يبقى يُهنأ وتنال الجائزة. فاللي عايز كل عمل يعمله ينال جزاءه مباشرة، ده لأن الله شكور، الله –عز وجل– يشكر الأعمال أيضًا في الدنيا ويبارك ويعطي، ثم يجزي أيضًا مرة أخرى في الآخرة –سبحانه وتعالى–.

فيه حاجات بتُعجَّل، سواء من الطاعات أو المعاصي، لكن احنا بنتكلم عن الأصل، أن الدنيا دار ابتلاء وعمل، فلا يتعجل الإنسان الجزاء في الدنيا.

يبقى إذًا الإنسان محاط بالصعاب، أنت عندك كمية مشاكل في حياتك لازم تجاهد نفسك إنك تحافظ على دينك وتنصر الدين في وسط هذه الظروف، مش في غيرها. طب أصل لو كنت هعمل، لو كنت في شغلانة تانية كان زماني بدعو، لو كنت في مكان تاني كان زماني حفظت القرآن، لو كنت في دولة تانية كان زماني دعيت إلى الله، لو كنت أعرف فلان كان زماني طلبت علم. هذه اللولوة لا تغني شيئًا عن الإنسان.

عارف اللي يقول لك: اللي خايب في بلده خايب في بلد غيره، هو الفاشل في ظروف هيفضل فاشل في الظروف التانية. دايمًا معتقد إن بس لو الظروف تتحسن هبقى كويس.

لا، أنت لازم تبذل، أنت عبد في كل الظروف، قد تختلف، نعم، قد تختلف أنواع العبوديات من ظرف لظرف ومن مكان لمكان، لكن أتحدث إنك تظل تبذل، أيًا كان نوع هذا البذل، البذل بيختلف من طاعة لإنفاق لجهاد لدعوة لأمر بمعروف ونهي عن المنكر، بيختلف نعم، وبتزيد درجات وبتقل درجات، لكن يظل يبذل، يظل يسير، يظل يقتحم. يبقى إذًا من سنن الله إن ستظل الظروف.

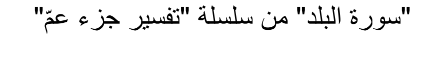
اعتقاد إن الشيطان إبليس يموت ويتوقف عن الوسوسة، وإن الأعداء يتصالحوا مع الأولياء، وأن الباطل يتصالح مع الحق، هذا وهم، ده وهم، ستظل الابتلاءات وستظل الصراعات.

مثلًا إحدى الابتلاءات اللي بتمر في حياة الإنسان، الشهوة، وإن ربنا خلق الإنسان جسديًا ومعنويًا فيه الشهوة، مش الصح إن الإنسان يقطع هذه الشهوة، لما بعض من الصحابة جه النبي –صلى الله عليه وسلم– واستأذنه في الاختصاء حتى يتخلص تمامًا من هذه الشهوة، قال له: لا، مش ده الحل.

هو مش الحل الامتناع التام عن الابتلاءات، لا، الحل إن تكون موجود وتنجح، مش الحل إن الظروف تبقى كلها كويسة، لا، الحل إنك تعمل في وسط هذه الظروف، إنه يجاهد، لن يتوقف الشيطان عن الوسوسة ولن يتوقف أهل الباطل عن الحرب. إذًا لا بد للإنسان يستمر في المجاهدة، لذلك أحب الأعمال إلى الله إيه؟ أدومها. الذي لا يتوقف.

---

[٣] صحيح مسلم

ودي سبحان الله نصيحة نبوية معجزة تدل أنه يتلقى وحي من الملك –سبحانه وتعالى– لأنه لا يخبر بهذه النصيحة إلا من خلق هذه النفس وهو الذي أعلم بما يَصلح ويُصلح هذه النفس، ما يَصلُح لها وما يُصلحها. هذه النفس حتى تُروض لا بد من المداومة والاستمرار، لذلك النبي –صلى الله عليه وسلم– يقول: "أحَبَّ الأعْمالِ إلى اللَّهِ أدْوَمُها وإنْ قَلَّ"[4] إنك تفضل في كل الظروف شغال مستمر. حتى إذا جه ظرف طارئ نلت الأجر، أصابك مرض أو اضطريت لسفر ولم تستطع إكمال الطاعات، يعطيك الله أجر ذلك حتى يستمر لك أجر المداومة.

"لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ" يبقى قلنا السورة مما تتكلم عنه ومن القضايا الأساسية واللي جه جواب القسم، أن الإنسان سيُبتلى قطعًا، إما في الدين أو في الدنيا، وابتلاء الدين أعظم؛ لنصرة هذا الدين.

من الناس من لا ينشغل إلا بولده وبماله وبأهله ويُفتن ويترك نصرة هذا الدين "إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ" التغابن:١٤، مما روي في نزولها: أنهم تركوا الهجرة إلى الرسول –صلى الله عليه وسلم– لإرضاء أزواجهم وأولادهم، فنزلت "إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ" وهذه الآية في سورة التغابن. أي أن الإنسان قد يُغبَن في حسناته بسبب المحيطين به. فالإنسان سيبتلى قطعًا، من الناس من يكون أعظم ابتلاءاته في نصرة هذا الدين. ومن الناس من لا ينشغل إلا بقضاياه الخاصة التي قد تصل إلى مرحلة من التفاهة لا توصف. "لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ".

ثم يخبر الله –عز وجل– عن منكرين للبعث، وعن أسباب تجعلهم ينكرون البعث. إنكار البعث دائمًا مبني على إنكار صفتين من صفات الملك –سبحانه وتعالى–: العلم والقدرة.

أن الله –عز وجل– يعلم خبايا الإنسان وخفاياه وأسراره وأفعاله وجسده وأعضاءه بعدما تُفَتَّت وتُقَطَّع، "قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ" يس:٧٨، إنكار صفة العلم المعجز، ينكرها الإنسان. وإنكار القدرة. فجابت حسابات للإنسان الطاغي المعتدي اللي بيظلم الناس وبيعذب أهل الإيمان، اللي يخليه بيعمل كده إنه بينكر صفتي القدرة والعلم.

وأسوأ أسباب الضلال في العقائد إن الإنسان يقيس ربنا على البشر. معنى إنه بقى قوى يبقى ربنا مش هيقدر عليه! أو إن هو يعني ظن واهمًا أنه أحاط بالأسباب، إن مفيش سبب هيقع!! زي ما كان اليهود يتسارون، يتكلمون سرًا بأشياء ومش عايزين حد يخبر بها، فربنا يَطَّلِع عليها. ده جهل.

فقال الله –عز وجل– الحساب الخطأ الأولاني: "أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ" هو فاكر إن محدش هيقدر عليه ولا إيه؟!

قلنا "يحسب" الحسابات الخاطئة، "يحسب" لو قلنا إن "حِل" أي يُعذَب النبي –صلى الله عليه وسلم– ويؤذى في مكة، أيحسب هذا الذي يُعذِّب أهل الإيمان ويعادي أولياء الملك –سبحانه وتعالى– أيحسب أن لن يقدر عليه أحد؟! هو معنى إنه معاه أسباب وإن ربنا يمهله أن لن يقدر عليه أحد؟!، هو فاكر إن محدش قادر عليه؟ هذا الحسبان يظنه الإنسان إذا امتلك كثيرًا من الأسباب.

"كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ" العلق٦:٧، استغنى بأسبابه، استغنى عن الله. فيقول لك: مفيش حاجة تقدر عليا! من اللي يقدر عليا؟! بالنسبة للجنود معايا جنود، بالنسبة للأسلحة معايا، بالنسبة للعتاد معايا، بالنسبة للعدة، هو بيظن أنه أحاط بالأسباب.

هذا الظن أشبه بظن العنكبوت التي تظن أن بيتها سيحميها "مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ" العنكبوت:٤١.

[4] صحيح البخاري



"أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ" ويقول: لقد أنفقت مالًا عظيمًا لأحصن نفسي، فلن يستطيع أحد أن يهلكني، فلقد أهلكت أنا المال لأحافظ على نفسي، فلن يستطيع أحد أن يهلكني "يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا" ده أنا صرفت صرف؛ قنابل وعدة وعتاد وأسباب وحصون مشيدة لن يستطيع أحد أن يهلكني، بل أنا الذي أهلك الأموال لأهلك الناس، لكن لا يستطيع أحد أن يهلكني.

"يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا" معنى أهلكت مالًا لبدا: لها أكثر من معنى:

– المعنى الأول اللي أنا ذكرته أنه أنفق مالًا عظيمًا ليدافع عن نفسه، وأنه لا يبالي بإهلاك المال حتى لا يهلكه أحد، ويظن أنه تحصن بهذا المال، "يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا".

– وقيل أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا: أنفقت مالًا كثيرًا للصد عن هذا الدين؛ لأنه يظن، بل يوقن أن هذا الدين سيذهب بعرشه، هذا الدين سيجتث عرشه، فينفق المال حتى يمنع ويصد عن هذا الدين. هو عارف إن فيه صراع بين الحق والباطل، وهو أصلًا عبد الدينار والدرهم، عبد الدينار والدرهم يفرط في الدينار والدرهم ليحافظ على نفسه، فيصرف المال حتى يدافع ويصد الناس عن الدين، فيحافظ على عرشه المبني على الظلم. "يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا" لبدًا: متراكمًا عظيمًا.

– القول الثالث أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا: أنفقت مالًا كثيرًا في وجوه الخير، محدش يقول لي: اعمل حاجة، أنا صرفت فلوس كثير. ومن لطايف التعبير على القول ده: إنه قال أَهْلَكْتُ لأن مال الكافر اللي بيصرفه في وجوه الخير هو مال مهلَك، كأنه أُلقي في بحر. إنما المؤمن لما بينفق في وجوه الخير يدخر هذا المال عند الله –عز وجل–، وينمي الله –عز وجل– هذا المال كما ينمي أحدنا فلوه. فاللي بينفق المال بدون إيمان، حتى لو في وجوه الخير، أشبه باللي بيهلك المال "يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا".

يبقى الظن الأول: أنه استغنى بأسبابه وأنه لن يقدر عليه أحد، وأنفق ما معه من مال ليحافظ على نفسه. فأنكر القدرة بالمال، أنكر قدرة الله بما معه من مال. وأنكر علم الله بالتخفي "أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ" هو عمال يمكر ويخطط، وبعد ما يخطط في السر خطته تنجح، فيظن أن بهذا التخفي وبهذا المكر يستطيع أن يغالب دين الله، وبالتالي يظن أنه يغلب الملك –سبحانه وتعالى– حاشاه.

"يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا"، مع أنهم بيخادعوا الذين آمنوا، لكن الذي يخادع أهل الإيمان يظن أنه يخادع الله، فقال الله: "وَما يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ" البقرة:٩.

لذلك ربنا –سبحانه وتعالى– قال: "مَن عادَى لي وَلِيًّا فقَدْ آذَنْتُهُ بالحَرْبِ"[٥] اللي بيحارب أهل الإيمان وعايز يخدع أهل الإيمان، فكأنما يحارب الله، ويحاول أن يخادع الله –عز وجل–، وما يخدع إلا نفسه في الحقيقة.

"أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ" هو فاكر إن محدش شايفه وهو بيخطط ويدبر في جلسات مغلقة ووضع البروتوكولات لهدم هذا الدين؟ هو معتقد إن محدش شايفه؟

"أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ" الذي أعطاه القدرة على الرؤية لا يراه! كيف يظن هذا؟!

اللي خلاه يشوف مش هيبصرك؟! اللي خلاك تبصر، يعني الذي أعطاك القدرة على فعل شيء، هو لا يستطيع أن يفعلها؟! طب ازاي؟! يعني ازاي يعني؟! يعني صفات الكمال للملك –سبحانه وتعالى–. أنت تبصر والله لا يبصرك؟! ازاي؟!

"أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ * أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ" مش هو اللي خلاك تشوف؟! "وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ" فالذي أعطاك البصر وأعطاك القدرة على الكلام وعرَّفَك طريقي الحق والضلال، هو يبصرك ويحاسبك ويكلمك يوم القيامة، يحاسبك ثم يحاسبك على أي الطريقين سلكت، مشيت في طريق الخير ولا طريق الشر؟

---

[٥] صحيح البخاري



" أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ" هو فاكر إن محدش شافه؟! "أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ"

دي الوسائل اللي ربنا اداها للإنسان حتى يصير في طريق الهداية، حتى يختار الطريق "أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ" قلنا النجدين: طريقي الحق والضلال، وربنا سماهم هنا: نجدين، غير مثلًا السبيل "إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا" في سورة الإنسان، السبيل: الذي سبّلته السابلة يعني: مشيت عليه الناس فأصبح فيه نوع من التمهيد شوية وهو ممهد.

هنا ربنا اصطفى لفظ النجد اللي فيه صعوبة؛ لأن السورة فيها صعوبة، في زمن ابتلاء، سورة تخاطب الذين يظنون إن فيه إيمان بدون ابتلاء، أو فيه حياة –سواء مؤمن أو كافر– الذي يظن إن فيه حياة من غير كبد. وجهد كل عبَّاد الدينار والدرهم أن يصلوا إلى مستوى من الحياة ليس فيها كبد، وهذا لن يكون إلا في الجنة.

أول ما بيخش الجنة يتقال لهم مفيش كبد، مفيش هرم، مفيش مرض، مفيش جوع، مفيش عطش، مفيش عري. في أول ما يُبشر به أهل الجنة. إن كل الكبد بينسف في أول لحظة من لحظات دخول الجنة. فجهد كل عباد الدينار والدرهم أن يعيشوا حياة بدون كبد، ولن يكون. مش معنى كده التخلي عن بذل أو تسهيل الحياة، لكن أقول الذي كل همه في ذلك ده واهم.

"أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ" ثم يقول الله –عز وجل–: "فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ" يقول الله –عز وجل– إن كان المفترض على الإنسان في هذه الابتلاءات أن يقتحم لا أن يهرب، أن يواجه لا أن يخاف، وبهذا ينتصر الدين، وبهذا يستمر الدين. أن الإنسان يجاهد ويبذل ويقتحم العقبة.

"فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ" كلمة فَلَا لها معنيين:

– فَلَا قيل: إنها لا نافية، أي أن كثيرًا من الناس لم يقتحم العقبة، "يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ" يس:٣٠، يبقى معنى "فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ" قيل معناها: أي لم يقتحم العقبة.

– وقيل "فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ" معناها: فهلا اقتحم العقبة؟ فكان الأولى به والأجدر به أن يقتحم العقبة بدلًا من أن يهلك ماله، سواء في الصد عن السبيل أو في خيرات بدون إيمان، فهلا اقتحم العقبة.

إيه الفارق ما بين الاقتحام والدخول أو المضي مثلًا؟ قالوا الاقتحام بيصحبه معاني أخرى، منها: إلقاء النفس بدون تفكير أو روية. وقيل: العزم والنشاط والقوة. يبقى الاقتحام إن الإنسان يرمي نفسه بدون تفكير أو روية، وبعزم وبقوة وبنشاط، ده الاقتحام.

الْعَقَبَةَ، إيه معنى العقبة؟ قالوا العقبة هي طريق ضيق بين جبلين، زي جبلين كده فيه طريق ضيق بعده متسع، دي عقبة. يعني العقبة هي حتة كأن الطريق ماشي وبعدين بيضيق بيضيق بيضيق بين جبلين ثم يتسع، الحتة دي اسمها إيه؟ اسمها العقبة.

فربنا بيقول: اقتحم هذه العقبة، لا تتوقف، أنت ماشي في طريق هيقابلك عقبات، هي دي العقبات، فالعقبات هي مضائق في الطريق، لذلك أنت لازم تقتحمها.

"أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى * وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى" النجم٣٣:٣٤، كنا شرحناها؛ أعطى هو تولى، تولى يعني مشي، طب تولى ليه؟ لأنه من الأول بادئ بداية ضعيفة، أعطى قليلًا، ثانيًا أن هذه البداية الضعيفة توقفت عند أول كُدية.

أكدى، ألف الوصول دي، أ، أكدى أي: بلغ الكدية، وصل إلى كدية: صخرة في الطريق. الكُدية هي: الصخرة الصعبة. أول لما قابله صخرة لف ورجع، هو أصلًا داخل متردد فرجع.

أعطى قليلًا، بدأ بداية مترددة، وليست بداية قوية، فأول لما قابله أول صعب من الصعاب رجع. فالحل مع هذه الصعاب هو الاقتحام، الوقوف طويلًا للتفكير لن يجدي شيئًا "إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ" المدثر١٨:١٩، اللي هيقعد يفكر كتير مش هيقتحم، يعني أنت لما بتفكر في اقتحام العقبات مبتفكرش لوحدك، أنت بتفكر ومعاك الشيطان، فيثبطك، فلذلك الإنسان لازم يقتحم في كل شيء.

فقال الله–عز وجل–: "فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ" أي: فهلا اقتحم العقبة؟ في زمن الابتلاءات والاستضعاف لا بد إن الإنسان يقتحم العقبة.
إيه العقبة؟ "وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ"

– بعض المفسرين قال العقبة هو جبل في جهنم، لن يستطيع الإنسان أن ينجو منه إلا بفعل طاعات. وقيل العقبة: الصراط الممدود على النار، لن يستطيع الإنسان المرور عليه إلا بفعل هذه الطاعات.

– وقيل العقبة: الابتلاءات الدنيا، أي المكاره التي حُفت حول الجنة. قال النبي –صلى الله عليه وسلم–: "حُفَّتِ الجنَّةُ بالمكارِهِ"[٦] لن يستطيع الإنسان وصول الجنة إلا بالمرور على هذه المكاره، إلا بعبور هذه المضائق في الطريق، وهذه المضائق لا تُعبر إلا بالاقتحام. هناك عقبات في طريق الالتزام لا تُعبر إلا بالاقتحام.

تاني. هناك عقبات في طريق الالتزام، هناك مكاره محفوفة حول الجنة لن تصل إلى الجنة إلا باقتحام هذه المكاره.

"فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ" دائمًا الشيطان، ومن ابتلاء الله –عز وجل– للناس إنه يُصوَّر له طريق الخير صعب، لذلك في أعظم فتنة في التاريخ؛ فتنة الدجال، لما بيأتي الدجال في آخر الزمان معه جنة ومعه نار، فيقول النبي –صلى الله عليه وسلم–: "فنارُهُ جَنَّةٌ وجَنَّتُهُ نارٌ"[٧] يبقى إذًا المشهد: دجال معاه نار عظيمة بتحرق، حقيقة النار دي إيه؟ جنة.

حتى تدخل إلى الجنة، لا بد أن تقتحم في النار، اللي هيفضل واقف قدام نار الدجال، طب وبعدين، طب أدخل؟ طب اتحرقت، طب أجرب بس بعد إذنك الدجال ممكن أشوف كده؟ كده عمره ما هيدخل. طب أجيب ورقة أجربها أشوف هيحصل فيها إيه؟ هو لو فضل كده عمره ما هيدخل. هو الحل إيه؟

لذلك في بعض الروايات، النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: إذا تردد الإنسان فليغمض عينيه وليقتحم. إن الحل: الإنسان يلقي نفسه، طب مش قادر؟ خلاص، غمض عينك وارمي نفسك في نار الدجال. هنا إن الحل إنه يلقي نفسه في هذا الطريق.

كثير من اللي بيقعد يفكر ألتزم ولا لاء ألتزم ولا لاء، في الغالب لاء، إلى أن يشاء ربي شيئًا، قال له : اركب معنا، قال: سآوي إلى جبل يعصمني، خلاص، حال بينهما الموج فكان من المغرقين.

المترددين كتير وقعوا، قال له: يا عمي، قل كلمة أشفع لك بها عند ربي، قعد، طب الناس هتقول علي إيه؟ قال: هو على ملة عبد المطلب.

الإنسان لا بد إنه يقتحم، "فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ".

يبقى أحيانًا الطريق بيبقى سهل، حاجات في الدين سهلة، ويجي مضيق في الطريق، مش الحل إنك تقف ولا تتردد ولا تلف وترجع، الحل إنك أنت تقتحم، الحل إنك تقتحم هذه المضائق، هذه المكاره.

٦ صحيح ابن حبان
٧ صحيح مسلم



من هذه الابتلاءات إن يحصل تضييق عام زي في أول السورة كده تعذيب عام لكل أهل مكة، زي ما هيجي لنا هنا "مَسْغَبَةٍ" مجاعة عامة، ابتلاءات عامة، دي مضائق، جوع وفقر عام، جفاف دعوي عام، دي ابتلاءات بيمر بها الإنسان لازم يقتحمها، الحل فيها هو الاقتحام.

لذلك ربنا لما قال على طريقة مشي المنافقين في طريق الدين: إن كلما أظلم عليهم إيه؟ قاموا. الدنيا كويسة وماشية وفيه انتصارات، ماشي، كلما أظلم عليهم إيه؟ يقف. كل ما يحصل ابتلاء أو خسارة أو هزيمة أو ابتلاء يقف، هذه طريقة سير مين؟ المنافقين في طريق الدين. المؤمن يقتحم، المؤمن بيقتحم.

فقال الله –عز وجل–: "فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ" سواء العقبة الأخروية؛ الجبل في النار –والعياذ بالله– أو الصراط، أو العقبة الدنيوية من المكاره التي لا بد أن يجتازها الإنسان للدخول إلى الجنة، هذه العقبة، فقال الله –عز وجل– عنها: "وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ" وجاب لنا أمثلة لعقبات قد تمر في حياة الإنسان لا بد أن يقتحمها، منها: "فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ * يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ"

فَكُّ رَقَبَةٍ الوضع في مكة –علشان نفهم قيمة فك رقبة– الوضع في مكة كله استضعاف، غالب اللي آمن هم من المستضعفين وعبيد عند المشركين من قريش، وفيه فقر، تخيل واحد في زمن الفقر في مكة يجيب فلوس ويروح عشان يعتق واحد من المسلمين عند كبراء المشركين، طب أنت بتعتقه ليه؟ طب أنت معاهم؟ طب والفلوس دي أنت مش محتاجها؟ طب هو ممكن يُعذب؟ طب هو ممكن يضيقوا عليه؟ إنه ياخذ هذا القرار ويدافع عن إخوانه، العجيب إن الأمثلة اللي ربنا جابها من الاقتحام هي في مساعدة الآخرين المنكوبين.

فكأن مش الحل بس في وقت الأزمات إنك تدور على نفسك، ده كمان بيساعد الآخرين، يعني ربنا بيتكلم عن فك رقبة اللي في الرق، العبد، ما بالك اللي بيسعى في فك رقاب الناس من الشهوات في زمن جفاف دعوي؟ هو بيسعى في فك رقاب الناس من الفتن، في فك رقاب الناس من النار، اللي هو العتق بقى من النار، بيساعد الناس على العتق من النار، فالذي يساعد الناس على العتق من العبودية للبشر في الدنيا، تخيل بقى اللي بيساعد في عتق الناس من النار –والعياذ بالله–.

فَكُّ رَقَبَةٍ إنه الاقتحام مش فقط النجاة بالنفس، ده النجاة بالنفس وبالآخرين، بيسعى لإفادة الآخرين ولإعطاء الخير للآخرين، حتى في زمن الاستضعاف، حتى في زمن الاحتياج، حتى لو هو محتاج الفلوس دي، حتى لو هو هيضر في سعيه لفك رقاب الآخرين. يعني ممكن هو يروح يفك رقبة واحد فيعذبوه هو، ممكن تروح تدعو واحد فأنت تتعرض للخطر، لكن أنت برضه بتروح، في وسط كل التضييق ده أنت بتسعى للدعوة.

أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ –لذلك لما ربنا قال الإطعام خصه– فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ"، مش أي إطعام، ما أنت ممكن معاك فلوس كتير وفيه أكل كتير فتطعم، مش ده اقتحام العقبة، ده السير الطبيعي في الطريق الواسع، ده السير في الطريق المنير، زي لو هنتكلم عن المنافقين، إنما الإشكالية في المضائق اللي بتيجي، في المكاره، في كلما أظلم عليهم، في الابتلاءات.

"وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ –طول ما الدنيا ماشية هو ماشي– فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ –المضيق بقى هنا– انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ" الحج:١١، والعياذ بالله، ماقتحمش.

"أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ" مسغبة يعني: مجاعة، وقيل: السغب هو جوع مع تعب ونصب، يعني كمان ناس بتشتغل ومش لاقية تاكل، مش بس مجاعة، لا، ده هم بيشتغلوا وجايبين آخرهم وتعبانين وبرضه مفيش أكل. في الوقت ده كل جزء بسيط من الطعام الناس بتحافظ عليه، محدش عارف بكرة فيه إيه، طب المجاعة دي هتخلص امتى؟ ده مجاعة عامة، طب هيتصرفوا ازاي في وسط الظروف دي؟ وتلاقي واحد

يطعم، طب ازاي؟ عين الأكل ده لعيالك، عين الأكل ده جايز تحتاجه، لكن دي مجاعة عامة، فيعظم الأجر للذي يُطعم في وقت المجاعة، ويعظم الأجر للذي يبذل ويدعو إلى الله في وقت الخوف والجبن، ويعظم الأجر للذي يعبد ويصلي في وقت الهرج والفتنة. النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: "الْعِبَادَةُ فِي الهَرْجِ كَهِجْرَةٍ إِلَيَّ"[٨]. البذل في أوقات الاستضعاف مع عظم الأجر، ده اقتحام للعقبات.

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، محمد –صلى الله عليه وسلم–.
كنا بنقول: في وقت الفتن، وقت الأزمات، وقت المجاعات بيعظم الأجر. الله –عز وجل– يقدر هذه الأوقات لتخرج منا العبوديات. الله –عز وجل– قادر إنه يجعل الحياة كلها سهلة، لكنه –سبحانه– بحكمة منه وبلطف أيضًا، فحكمته محفوفة دائمًا باللطف وبالرحمة، يقدّر بحكمة منه –سبحانه وتعالى– هذه الابتلاءات لتخرج منا عبوديات وطاعات وطاقات كانت مختزنة، لم تكن لتخرج إلا في مثل هذه الأوقات.
فحينما يُقدّر مَسْغَبَةٍ، حين يُقدّر هذه المسغبة، هذه المجاعة، يقدرها لينظر كيف يفعل الناس؟

أيضًا مراحل الجفاف الدعوي اللي ممكن تمر، ماذا يفعل الإنسان، سواء الداعية أو الناس، هل الناس ستبحث عن الدعوة؟ في أوقات الدعوة موجودة في كل مكان والدين موجود في كل مكان، وأوقات في أماكن قليلة، لكنه لا ينفد أبدًا، لكن موجود في أماكن لا بد أن يبحث الناس عنها، هل سيسكت الداعية في هذه الأوقات ولّا هيتكلم ويجهر بالحق وينصر الدين؟ لا بد من اقتحام هذه المضايق.
وقلنا أول مثال ذُكر عن هذه الابتلاءات هو الأذى اللي تعرض له النبي –صلى الله عليه وسلم– في مكة. فإذا كان أشرف الخلق –صلى الله عليه وسلم– تعرّض إلى هذا البلاء، فكيف يظن من هو دونه أن لا يتعرض له؟ –صلى الله عليه وسلم–، نزل الدم من وجهه الشريف –صلى الله عليه وسلم– وربط على بطنه الحجرين، ونزل الدم من إصبعه، قال: وهل أنت إلا إصبع دميت؟ إيه اللي حصل؟ إيه المشكلة لما الدم ينزل طالما في سبيل الله؟ وهل أنت إلا إصبع دميت؟ وفي سبيل الله ما لقيت. ما هو الدم ده في سبيل ربنا.
إذًا كل شيء يهون طالما إنه في سبيل الملك –سبحانه وتعالى– في سبيل نصرة هذا الدين.

"وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ" بالرغم من المجاعة والتعب المنتشر، إلا إنه بيبذل ويطعم، وقلنا إذا كان ده في الماديات، ففي المعنويات أولى، كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "حاجة الناس إلى الدين أعظم من حاجتهم إلى الغذاء". فتخيل اللي بيطعم الناس في وقت المجاعات، فما بالك بقى اللي بيعلم الناس الدين في وقت المجاعات الدعوية؟

"يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ" دايمًا "وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ" الشعراء:٢١٤، وإطعام الأقربين، وإن اليتيم ليس له أحد، اليتيم ليس له أحد، والده تُوفي، فبرضه مراعاة الناس اللي أصحاب الاحتياجات لا بد إن الإنسان يرعاهم.

"أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ" اليتيم ممكن ميبقاش فقير أوي، لذلك قال: "يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ" مش لازم يبقى اليتيم فقير، ممكن اليتيم معاه فلوس بس مش عارف يتصرف، فهو محتاج إنك تساعده في الفترة دي.
"أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ" متربة أي: التصق بالتراب؛ كانوا بيدعو تربت يداك أي: التصقت بالتراب، إن من شدة الفقر معدش فيه غير تراب.

---
[٨] صحيح مسلم



"أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ" لذلك الحديث الصحيح "فاظْفَرْ بذاتِ الدِّينِ، تَرِبَتْ يَداكَ"[9] لها معنيين:

معنى أي إن لم تظفر بها يدعو عليك بالفقر، فاظفر بذات الدين وإلا تربت يداك، التصقت يدك بالأرض من الفقر، فلا تمسك المال ولكن تمسك التراب. المعنى التاني بقى: البركة، إن التراب حتى يتحول إلى ذهب في يدك.

فأنا بقول المعنى اللي هو المتربة أي: التصق بالتراب. فهؤلاء يحتاجون إلى البذل. العجيب إن الأمثلة اللي جات في اقتحام العقبة في الواقع المكي للمستضعف الفقير، أمثلة بذل أموال. طب واحنا معانا فلوس أصلًا علشان نبذلها؟ هذه أخلاق ثابتة لا تتغير باستضعاف أو بتمكين.

زي أخلاق سيدنا يوسف كده طول السورة، سواء في السجن، سواء مستضعف، سواء ممكّن، فيه أخلاق ثابتة مبتتغيرش.

يعني فيه أخلاق لازم الإنسان يبقى عنده ثبات في هذه الأخلاق لا تتغير، مش مثلًا ينفق لما يبدأ محتاج حاجة من الناس ولما ميبقاش محتاج حاجة مينفقش، لا، بينفق في كل الأوقات، ده بذل، دي عقيدة البذل عند الإنسان، والعجيب إن كتير من المسائل دي تكررت في مكة ونزل آيات كتير في البر، حتى لو كانوا مشركين، لكن لا تطعهم في الشرك، بر بالأهل، الإنفاق على الفقراء، عقيدة البذل بتتربى في المسلمين من أول مكة في زمن الاستضعاف، هذه أخلاق ثابتة لا تتغير وبها يُمكّن الإنسان، ولكنه لا يفعل ذلك لأجل التمكين فإذا جه التمكين تركها، هذه عقائد يحبها الله –عز وجل– وأخلاق يحبها الله –عز وجل– في كل الأوقات.

فمن الحاجات العجيبة جدًا إن هذه الآيات تنزل في واقع مكة، وواقع أوله بيعذبونا، "وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا الْبَلَدِ" مستضعف وغرض وتؤذَى وننفق ونبذل الخير؟ نعم. بذل الخير لا يتوقف على رد فعل الناس من هذا الخير، فعل الخير لا يتوقف على رد فعل الناس لهذا الخير.

أنت بتبذل الخير طلب رضا الله –سبحانه وتعالى–، هذه أخلاق ثابتة لا تتبدل ولا تتغير، والثبات عليها يؤدي إلى النتيجة التي ذكرها الله –عز وجل– "فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ" فصلت:٣٤

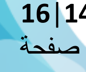
ومعروف من أحبار اليهود الذي كان يأتي إلى النبي –صلى الله عليه وسلم– يختبره بهذه، إنه لا يزيد جهل الجاهل عليه إلا حلما. فيجهل عليه فيحلم النبي –صلى الله عليه وسلم– ويعطي، فيوقن أنه لا يفعل ذلك إلا نبي. لأن بالحسابات البشرية وبمصالح وبمفاسد معينة لا، طب ما يموت، هو لما يجي النبي –صلى الله عليه وسلم– في وسط الصحابة وحاكم دولة المدينة في وسط التمكين في المدينة ويجي النبي –صلى الله عليه وسلم– يقول له اديني من المال، أنتم قوم مطل يا بني عبد المطلب، ولما يهم عمر بن الخطاب إنه يضرب عنقه، فيقول لعمر: هلا أمرتني –ويبدأ النبي –صلى الله عليه وسلم– بنفسه– بحسن الأداء وأمرته بحسن الطلب، أعطه ماله ثم زده مالًا جزاء ما روعته. هذه لا يفعلها إلا نبي؛ لأن مفيش مصلحة. هذا الخلق لا يفعله إلا نبي –صلى الله عليه وسلم–. وكذلك أتباع الأنبياء يفعلون ذلك، "وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا" الفرقان:٦٣، هذه الأفعال فرقان أنهم أهل حق، مش أصحاب مصالح، أنهم أهل حق، أنهم أهل دين، يفعلون ذلك ابتغاء مرضاة الملك –سبحانه وتعالى–.

"فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ * يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ * ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ"

المفسرين استغربوا ازاي يعمل كده وبعدين يبقى مؤمن، الطبيعي إنه يبقى مؤمن الأول.

– فبعضهم قال: المقصود هنا كمال الإيمان، أي أن الإنسان لن يستقر على الإيمان ولن يثبت في الإيمان ولن يصل إلى كمال الإيمان إلا بهذه الأفعال؛ بالبذل في المضائق، وبالصبر في الابتلاءات، "ثُمَّ كَانَ" أي ظل يترقى في مدارج الإيمان حتى وصل إلى قمة الإيمان.

[9] صحيح البخاري



"ثُمَّ كَانَ" وأصبح في زمرة المؤمنين، "ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ" كده كده الإيمان عايز صبر، لإن فيه ابتلاءات، فيه أوقات ضيق، في كبد هيمر على الإنسان، مش بس يصبر، يصبر ويُصبّر نفسه ويتصبر بغيره. "تَوَاصَوْا" تواصوا: تفاعل احنا الاثنين، أنا بوصيك بالصبر وأنت بتوصيني بالصبر. إذًا يصبر ويُصبّر غيره ويتصبر بغيره.

مش بس بيتواصوا بالصبر، ده بيتواصوا بالإيه؟ بالمرحمة. أوقات احنا محتاجين نرحم بعض، عجيب جدًا إن أوقات استضعاف المسلمين إن المسلمين يقطعوا في بعض، نحن أحوج ما يكون إلى رحمة بعضنا لبعض.

هلاقيها منك ولا من العدو، تطعن في ظهري وأُطعَن من وجهي؟ عجيب إن في وقت الاستضعاف ويطعن المسلمون في بعضهم البعض، والعجيب أيضًا إن الزمن ده زمن صعب، زمن مجاعات زي مسغبة أو تعذيب، المتوقع إن الإنسان في الزمن ده بيكتسب خشونة في الصفات، بيتعذب ومفيش فلوس ومجاعات، فبتتغير أخلاقه حسب الظروف، فبيصبح خشن، فربنا بيقول: لا، تواصوا بالمرحمة. متخليش الظروف تغير أخلاقك، متخليش ضغط الظروف يغير لك أخلاقك.

لما يُذكر عن بعض السلف إنه كان يقول كان فلان حسن الخلق، فما زال به الناس حتى ساء خلقه. ضغط الناس قعدوا يضغطوا عليه ويقرفوه ويضغطوا عليه لغاية لما بقى خلقه سيء. فالعجيب إن في وسط الظروف دي ربنا يقول: وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ. الإنسان يحافظ على الأخلاق مهما تغير الناس من حوله، يحافظ على أخلاقه، مهما آذاه الناس يحافظ على أخلاقه. نسأل الله -عز وجل- أن يرزقنا حسن الخلق.

"ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ * أُولَٰئِكَ -للرفعة- أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ"

قيل الميمنة: الجنة،

الميمنة: يأخذ كتابه بيمينه،

قيل الميمنة: أي اليُمن، حياتهم تأتي فيها البركة،

بالرغم إن فيه ضيق وبالرغم إن فيه مسغبة، وبالرغم إن فيه تعذيب، وأنت حل بهذا البلد، بالرغم إن فيه كبد، السورة كلها ابتلاءات، هنا يظهر اليُمن فجأة، تظهر البركة فجأة، ليه؟ لأنه عمل أعمال الصالحات وصبر عليها.

إذًا كل الناس بتبتلى، لكن المؤمن معاه حاجة مش مع الكافر، قال الله -عز وجل-: "إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ -أنت معاك حاجة مش معاه، اللي هي إيه؟- وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ" النساء:١٠٤، إياك أن تضيعها، فتصبح مثلهم. إياك أن تضيع الرجاء وتكتفي بالإيلام. "إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ -لكن أنتم- وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ". علاقتك بالله تخليك تتجاوز الألم ولا تبصر الألم ولا تشعر بالألم، ويتحول الألم إلى لذة، بالرغم إنك في الحقيقة في كبد وفي ألم وفي معاناة، لكن أنت لا تشعر به.

ده اليُمن؛ "أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ" قيل: النار، أو يأخذ كتابه بشماله، أو الشؤم والضنك، والعياذ بالله.

"عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ" من اللطائف بعض اللغويين قال: إن صيغة مفعلة تدل على الاستمرار، يعني هيفضل في ميمنة في الدنيا لغاية القبر والقيامة والجنة، اليُمن مستمر معاه، والتاني الشؤم مستمر معاه في الدنيا وفي القبر وفي القيامة وفي النار والعياذ بالله.

"عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ" ختام عجيب جدًا تُختم به السورة: كأن ربنا بيقول لنا إيه؟

الإنسان كده كده في كبد، كلمة "فِي كَبَدٍ" يعني الإنسان محاط بالكبد، الحل علشان الإنسان يخرج من الكبد ده إنه يقتحم العقبة حتى يدخل الجنة، اللي مش هيقتحم العقبة هيفضل في الكبد فتُغلق عليه النار، عليهم إيه؟ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ، النار تتقفل عليه، فيظل في الكبد إلى ما لا نهاية، والعياذ بالله.

يبقى إذًا الإنسان يعيش في كبد، ولا حل للخروج من الكبد إلا بالاقتحام، والاقتحام بذل الطاعات في أوقات الابتلاءات، فيمن الله -عز وجل- عليه ويدخل الجنة، وإلا والعياذ بالله يظل في هذا الكبد حتى تُغلق عليه النار، وإذا أُغلقت عليه النار -بنتكلم عن الكافر- إذا أغلقت عليه النار يظل في هذا الكبد أبدًا خالدًا فيها والعياذ بالله.

فختام السورة "عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ" أن هناك أناس والعياذ بالله اختاروا أن يعيشوا في الكبد إلى ما لا نهاية. أسأل الله -عز وجل- أن يرزقنا اقتحام العقبات وبذل الطاعات في أوقات الابتلاءات، وأن يستعملنا لنصرة دينه.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم. سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.